سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾

لاَ يُفْتَنُونَ: لا يمتحنون بالمشاق والشدائد ليتميز المخلص من المنافق.

إن كون المرء مؤمناً ومسلماً لا يتحقق ولا يُعتبر بالنظر إلى العمل الذي يمارسه في الأحوال المعتادة ، بل على أساس العمل الذي يمارسه المرء في الأحوال غير المعتادة .. وهذه الأحوال غير المعتادة تتمثل في مواقف غير عاديةٍ ؛ ينكشف عندها ما إذا كان المرء حقاً كما يدعي بعمله الظاهري ، أو هو ليس كذلك .. وإنما المؤمن المسلم المعتبر عند الله هو الذي يقيم الدليل على تمسكه بالإيمان والإسلام في غمار الأحوال غير المعتادة .

واجتياز المحنة أو الامتحان الإلهي بنجاحٍ يعني ، بعبارةٍ أخرى ، الوفاء بمقتضيات الإيمان والإسلام على مستوى التضحية .. أي أن تبادر إلى التصديق بالحق ، حتى لو تناوله عامة الناس بالتكذيب .. وأن توقن به حين يكون الناس من حولك مرتابين في أمره .. وأن تبقى مؤمناً ساعة يطالبك الإيمان بأن تدوس أنانيتك .. وأن تبذل بسخاء ساعة تدعو الظروف إلى الإمساك وعدم الإنفاق .. وأن تظل صامداً عندما تتزلزل الأقدام .. وأن تسلم نفسك دون تحفظٍ ، إذْ تميل النفوس إلى التهرب طلباً للنجاة ، وبحثاً عن السلامة .. وأن تذعن وتنقاد حين تكون فرص العناد والطغيان متاحة .. وأن تتقدم لمناصرة الحق حيث تعني مناصرته الحرمان من كل شيءٍ .

ففي مواقف غير عادية كهذه تبرز خبايا القلوب ، وتتجلى كوامن الصدور للعيان ..

وساعتئذٍ لا يبقى لأحدٍ مجال اللف والدوران لكي يتظاهر ، عن طريق ترديد الألفاظ المفترضة، وإطلاق الشعارات المدوية الجوفاء ، بما هو ليس في حقيقة الأمر!

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

أَن يَسْبِقُونَا: أن يعجزونا ويفوتونا.

أَجَلَ الله : الوقت المعين للبعث والجزاء

الدخول في الإيمان يكون في أغلب الحالات ، مرادفاً للسير في الاتجاه المضاد للعصر.. إنه عبادة الله في بيئة تسودها عبادة الأسلاف والأكابر .. وهو وضع المبدأ في المقام الأول والأسمى حيث يُوضع الهدى في المقام الأسمى .. وهو طموح نحو العيش لأجل منفعة الآخرة ، في مناخ تُكرس فيه الحياة لمنفعة الدنيا .

وإن حياة كهذه تتطلب مجاهدةً عنيفةً مستمرةً .. وإنه لا يوفق للاستمرار والصبر على تكاليف هذه المجاهدة إلا الذين أيقنوا بالله أتم الإيقان ، والذين جعلوا من إنعام الله الموعود وحده مركزاً لآمالهم وطموحاتهم!

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ: أمرناه.

حُسْناً: براً بهما وعطفا عليهما.

إن أعظم المخلوقين حقاً على الإنسان والداه .. ولكن كما أن لكل شيءٍ حداً يقف عنده ، كذلك فإن حقوق الوالدين هي الأخرى لها حد لا تتعداه .. وذلك ما عبر عنه الرسول - ﷺ - بقوله : "لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق" (رواه أحمد والحاكم) .

وعلى هذا لابد من القيام بحقوق الوالدين ، ما دامت لا تتعارض مع حقوق الله ، وأما إذا تعارضت طاعة الوالدين مع طاعة الله ، فإن عدم الطاعة لهما عندئذٍ تصير واجبةً تماماً كما تجب طاعتهما في الأحوال المعتادة .

ويُلاحظ أن المقصود بحقوق الوالدين في الإسلام هو خدمة الوالدين وليس عبادتهما !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

فِتْنَةَ النَّاسِ: ما يصيبه من أذاهم وعذابهم.

إن شخصاً يدعي الإيمان .. والشأن أنه إذا رأى في الانضمام إلى صف المؤمنين بعض الأرباح المادية ، بالغ في إظهار إيمانه وحماسته .. وأما إذا كان الانضمام إلى المؤمنين ينطوي على بعض المخاطر أو يسبب له بعض الخسائر الدنيوية ، فلا يلبث أن يرجع القهقرى.. إن شخصاً كهذا يطلق عليه القرآن مصطلح المنافق .. والمنافقون قوم كانوا مؤمنين في ظاهر أمرهم ، ولكنهم أبوْا عن دفع ثمن إيمانهم .. وبالتالي فشلوا حيث كان المفروض أن يبرهنوا على النجاح!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

خَطَايَاكُمْ: أوزاركم.

أَثْقَالِهِمْ: خطاياهم الفادحة.

يَفْتَرُونَ: يختلقونه من الأباطيل والأكاذيب.

الافتراء هو أن يتقول المرء شيئاً من تلقاء نفسه ، وينسبه إلى الله سبحانه وتعالى .. ويندرج تحته كل ألوان البِدَع المستحدثة والتأويلات الفاسدة .. ومن صور هذا الافتراء أن يقول قادة الكفر والضلال لمن دونهم من الجماهير أن الزموا طريقنا ، وترسموا خطانا ، وسنأخذ تبعة ذلك على عواتقنا فيما لو سُئلتم عنه عند الله !.

ولما كان الله – عز وجل –لم يمنح أحداً حقاً من هذا النوع ، فإن القول بذلك ضرب من الافتراء واختلاق الكذب على الله!!

إن المرء كثيراً ما يقول أقوالاً لا يحسب لها أي حسابٍ ، وهي من الخطورة بحيث لو أنه رأى وخيم عاقبتها ، لما نطق منها بحرفٍ أبداً .. ومن ثم حين يشاهد هؤلاء المتقولون أهوال القيامة ، فسيكون حالهم هناك مختلفاً كل الاختلاف عن حالهم في دنيا اليوم !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

عاش نوح - عليه السلام - يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً .. وقد كان - عليه السلام - قبل نبوته أيضاً رجلاً صالحاً عاملاً بشريعة آدم - عليه السلام - .. ثم نهض بعدما نُبىء داعياً إلى الله يواصل الليل بالنهار في إنذار قومه.. ولكن بالرغم من جهوده المخلصة التي دامت مئات السنين ، لم يؤمنوا بدعوته .. فما لبثوا أن أُغرقوا جميعاً - ما عدا ثلةً مؤمنةً صالحةً قليلة العدد - بطوفانٍ عظيم .

وفي سلسلة الجبال الواقعة بشرقي الأناضول على حدود تركيا وروسيا ، قمة شاهقة تعرف بأرارات أو أراراط (Ararat) ، يقدر ارتفاعها بما يزيد عن خمسة آلاف متر .. وقد أخبر الطيارون من فوق هذه الجبال أنهم رأوا على قمة أراراط المغطاة بالثلوج شيئاً أشبه بسفينةٍ .. ومن هنا بُذلت ولا تزال محاولات شتى للوصول إلى تلك السفينة .. ويعتقد العلماء أنها الشيء الذي ورد ذكره في القصص الدينية باسم "سفينة نوح" .

ولو كان هذا الخبر صحيحاً ، فمعناه أن الله - سبحانه وتعالى - قد حفظ سفينة نوحٍ من الضياع حتى هذا اليوم ، لكي تكون للناس علامةً ناطقةً بأن النجاة من طوفان الله تتطلب سفينة النبي ، وأنه ليس ثمة من شيءٍ آخر البتة من شأنه أن ينقذ المرء من طوفان الله!

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً: تكذبون: أو تنحتون كذبا.

كل ما يتخذه المرء من دون الله الواحد الأحد مركزاً لأسمى عواطفه ، لا يعدو كونه ضرباً من الكذب والبهتان .. فإنه يفترض الأوصاف الإلهية في غير الله .. إذْ لا يمكن للمرء أن يتوجه إلى غير الله بالعبادة ، إلا بعد أن يفترض فيه تلك الخصوصيات العليا التي ينفرد بها الله وحده بلا ندٍ ولا شريكٍ !

وقد كان الإنسان في عصر الشرك القديم يفترض وجود هذه الصفات الإلهية في الأصنام والتماثيل .. وأما إنسان اليوم فهو الآخر يمارس الشيء نفسه ، اللهم إلا أن أسماء الأصنام لدى الإنسان الحديث تختلف عن أسمائها لدى المشركين القدامى .. وكل ما يفرق بين القديم والحديث هو أن الإنسان القديم إذا كان يجني ثمرات الأرض على أنها نعمة أحد الآلهة المزعومة ، فإن إنسان اليوم يعبر عن ذلك بهذه الألفاظ : إن ثورتنا الخضراء (النباتية) إنما هي نتاج لتقدم علومنا الزراعية !!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ: تردون وترجعون لا إلى غيره.

بِمُعْجِزِينَ: فائتين من عذابه بالهرب.

الإنسان لم يكن موجوداً أولاً ، ثم وُجد بعد .. إذن ، فالخلق الذي صار ممكناً مرةً واحدةً ، لِمَ لا يكون ممكناً مرةً أخرى ؟ وقد كتب الشاه عبد القادر الدهلوي في هذا

المقام تعليقاً موجزاً مفيداً يقول : "إنكم ترون البداية كيف تحصل ، ففي ضوئها يمكنكم أن تفهموا عملية الإعادة كيف تكون" !!

إن كل امرئٍ موجودٍ مثال في ذاته على الخلق الأول .. ولو أراد المرء مزيداً من الأمثلة، فله أن يحل بصره في أرجاء كون الله الفسيح ويتأمل في ظواهره .. وإنه إذ يفعل ذلك فسيجد أن الكون بأكمله نموذج حي لهذا الواقع ذاته.. وإنما وضع الله هذه النماذج الناطقة في كونه لكي يتفهم الإنسان منها حقيقة الخلق الثاني ، ويقبل بالتالي على العمل الذي ينفعه في مرحلة الحياة القادمة !

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ: للتواد والتواصل بينكم لاجتماعكم على عبادتها.

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ: منزلكم الذي تأوون إليه النار.

الشيء الذي يتخذ شكل العرف أو العادة القومية في مجتمعٍ ما ، لا يلبث طويلاً حتى يصير حاجة كل فردٍ من أفراده .. فعلى أساسٍ منه تقوم علاقاتهم المتبادلة .. وبه ترتبط مصالحهم الحياتية على اختلاف ألوانها .. وعلى حسب قيام الفرد بمقتضاه أو

نبذه إياه تتحدد قيمته أو يسقط اعتباره بين الناس .. ولقد كان الشرك في قديم الزمان تحول إلى عادةٍ قوميةٍ كهذه .. وقد أفهم سيدنا إبراهيم أهل العراق بأن عبادة الأصنام التي أنتم جامدون عليها ، لا تعدو كونها عادة شعبية وليست بأي صدقٍ واقعي .. ومع انتهاء حياتكم الراهنة ستنتهي كل أهميتها تلقائياً .. غير أنه لم يقف إلى جانبه أحد سوى ابن أخيه لوطٍ - عليهما السلام - وذهب القوم في معاداته إلى حد أنهم ألقوه في النار .. ولكن الله تعالى أنقذه منها سالماً .. ولم يستحق إبراهيم بذلك إنعام الآخرة الأعلى وحده، بل مُنح من عند الله ذريةً صالحةً استمرت فيها سلسلة النبوة لمدة أربعة آلاف سنةٍ .. حيث كان ولده إسحاق نبياً .. ثم كان حفيده يعقوب هو الآخر نبياً .. ومنذئذ لم يُبعث نبي من أنبياء الله إلى سيدنا المسيح إلا وهو ينتمي إلى أسرة يعقوب - عليه السلام - ، ومن أولاد إبراهيم أيضاً كان مديان (مدين) الذي وُلد في نسله شعيب - عليه السلام - كما كان ولده إسماعيل بدوره نبياً.. ومن ذريته بُعث خاتم النبيين محمد - ﷺ - الذي تبقى نبوته مستمرةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتاريخ إبراهيم هذا كما ينطوي على عظاتٍ وعبرٍ لعَبدة الباطل ، يتضمن كذلك إشعاع النور الساطع للذين يقيمون أنفسهم على أساس الحق صامدين في وجه أعاصير الظلم والقهر والاضطهاد !

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ: بمقارفة المعاصي والقبائح.

نَادِيكُمُ: مجلسكم الذي تجتمعون فيه.

هاجر لوط من مدينة بابل إلى بلاد الأردن .. حيث أعطاه الله النبوة ، وكلفه بإصلاح قومه .. وقد كانت مساكن قومه بمنطقة سدوم قرب البحر الميت ، وكان هؤلاء مصابين بعادة اللواط غير الفطرية .. كما تفشت بينهم - إلى جانب ذلك - رذائل خلقية واجتماعية أخرى .. غير أنهم لم يقبلوا الإصلاح ، وظلوا غارقين في شهواتهم .. وقولهم ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ كان في الأصل موجهاً إلى لوط دون الله .. فقد ظنوا لوطاً من الحقارة بحيث كانوا يستبعدون أن يتعرضوا لبطش الله في حالة ما إذا لم يؤمنوا به .. ومن ثم قالوا على وجه التهكم والسخرية : أن ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين حقاً !

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

الغَابِرِينَ: من الباقين في العذاب كأمثالها.

سِيءَ بِهِمْ: اعتراه الغم بمجيئهم خوفا عليهم.

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم.

رِجْزاً: عذاباً شديداً.

دُمرت مناطق قوم لوط (سدوم وعامورة) عن طريق زلزالٍ رهيبٍ جعل عاليها سافلها.. وإن الوادي الخصيب الذي كانوا قاطنين فيه منذ أربعة آلاف سنةٍ، تمتد فيه الآن مياه البحر الميت الكثيفة.

وطبقاً لما ورد في القرآن الكريم فإن حادث التدمير هذا، إنما وقع بواسطة ملائكة الله .. ولكن علماء الجيولوجيا والآثار القديمة يقولون: إن هذه المنطقة عندما برزت فيها جبال نتيجة العملية الجيولوجية (ظاهرة التعرج)، حدث إلى جانب ذلك أن تولد في بعض أجزائها أخدود أو منحدر، ثم لم يلبث الجزء الجنوبي من هذا المنحدر بعدئذٍ أن امتلأ بمياه البحر .. وهكذا أصبحت تلك البقعة اليابسة من الأرض تحت الماء التي تعرف اليوم بضفة البحر الميت الجنوبية الأقل انخفاضاً.

إن الشيء الذي يراه القرآن آيةً إلهيةً، إذا به يتحول من خلال الرؤية غير القرآنية، إلى حادثةٍ طبيعيةٍ محضةٍ!

ويعتقد الخبراء أن أطلال هذه المدينة الخربة لا تزال توجد مطمورة تحت مياه البحر حتى هذا اليوم .. ولا شك أن في هذا موطن عبرةٍ عظيمةٍ .. غير أنها عبرة لأولئك وحدهم الذين يستعملون عقولهم في محاولة اكتشاف الأشياء والوقوف على دقائق الأمور!

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَلاَ تَعْثَوْا: لا تفسدوا أشد الإفساد.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة بسبب الصيحة.

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا حراك لهم.

أُرسل شعيب - عليه السلام - إلى قومٍ كانوا أهل تجارةٍ .. وقد اشتد حرصهم على اقتناء المال لدرجة أنهم أخذوا في كسبه بأساليب الغش والخداع .. وهذا كان إفسادهم في الأرض .. لئن كانت التجارة المشروعة أسلوباً لكسب المعاش ينطوي على الإصلاح، فإن الغش والابتزاز والسلب والنهب أسلوب لكسب المعاش يؤدي إلى الفساد!.

وقال شعيب لقومه : لا تغفلوا عن الآخرة سعياً وراء الدنيا .. ولتمارسوا أعمالكم الدنيوية بطريقةٍ يمكنكم أن ترجوا بها حسن العاقبة في الآخرة .. ولكن القوم ، رغم كل جهود نبيهم ، لم يقوموا بإصلاح شأنهم ، بل أنكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار .. ومازالوا يفعلون الشرور ولا يرتدعون .. إلى أن يأذن الله بهلاكهم ، وفق سنته الجارية.. فتحولت بيوتهم ، التي ظنوها دار حياةٍ لهم ، تحولت إلى مقابر لهم ، إذْ أخذتهم الرجفة (وهي الزلزال الشديد) ، فصاروا كأن لم يغنوا فيها!

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ: عقلاء متمكنين من التدبر.

ما لبث قوم عاد وثمود بدورهم طويلاً حتى حاق بهم عذاب الله .لقد كان هؤلاء أذكياء فيما يتعلق بشئون الدنيا ، غير أنهم كانوا غايةً في الحمق والغباء فيما يتعلق بشأن الآخرة.. ففيما اكتشفوا سر بناء البيوت والقصور من الجبال والصخور ، لم يتعاموا سر بناء الحياة والسعادة من نبي الله .. وإنما كان السبب في ذاته ما أطلق عليه القرآن "تزيين الأعمال" ، إذْ غرّهم الشيطان قائلاً بأن بناء الدنيا هو البناء

كله .. وإذا تمكنتم من بناء الدنيا ، لم تعد هناك أية مشكلةٍ تكدر صفو حياتكم أو تتهدد مصيركم. غير أن هذا الغرور ما أغنى عنهم شيئاً ، ولا هو مُغنٍ عن أحدٍ فيما يأتي شيئاً !

كانت مساكن عاد في المناطق الواقعة بجنوبي الجزيرة العربية التي تعرف اليوم باليمن والأحقاف وحضرموت .. وأما الجزء الشمالي من الحجاز ، بدءًا من رابغ حتى العقبة ، ومروراً بالمدينة وخيبر ، وانتهاءً بتيماء وتبوك ، فهو المنطقة التي كان يسكنها ثمود في قديم الزمان!

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سَابِقِينَ: فائتين من عذابه تعالى.

حَاصِباً: ريحا عاصفا ترميهم بالحصباء.

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ: صوت من السماء مهلك مرجف.

إن أمم الأنبياء لما كذبتهم وأنكرت دعوتهم ، دُمرت بالعذاب السماوي والأرضي.. فحلّ بقوم لوط عذاب الحاصب (وهو الريح العاصفة تمطر الحصباء أي الحجارة) ، ونزل بقوم عاد ، وثمود ، وأصحاب مدين عذاب الصيحة (الرعد والبرق) ، وأُهلك قارون بعذاب الخسف ، بينما أهلك فرعون وهامان وجنودهما بعذاب الغرق..إلخ.

وكان السبب المشترك الذي استوجب هذا العذاب بمختلف ألوانه ، يكمن في

استكبار الناس ؛ أي عدم قبول دعوة الحق لكونها ستقضي على كبريائهم وسيادتهم!

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

العَنكَبُوتِ: حشرة معروفة.

أرشدت الآيات هنا إلى أن الشخص الذي يدرك درس الحقيقة، وهو يشاهد بيت "العنكبوت" ، هو العالم حقاً..

ومن هذا يتضح لنا مَنْ هم العلماء الحقيقيون عند الله .. إنهم ليسوا خبراء المباحث الكتابية .. بل هم أولئك الذين يستلهمون الموعظة من الآيات الطبيعية المنبثة في كون الله .. والذين تتحول وقائع الدنيا الصغيرة في أذهانهم إلى دروسٍ وعبرٍ عظيمةٍ .. والإيمان ليس إلا اسماً آخر لهذا العلم ذاته حين يبلغ درجة المعرفة اليقينية القصوى!.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يعني أن كيفية الصلاة هي التي تنهي عن الفحشاء والمنكر.

ولو أن المرء أضحى في الواقع راكعاً ساجداً لله ، لتولّد في نفسه الشعور بالمسئولية والتواضع .. وإن السلوك الذي ينبثق عن الشعور بالمسئولية والتواضع ، إنما يتمثل في

إتيان المرء ما ينبغي لله وحده ، وابتعاده عما لا ينبغي له كل الابتعاد.

والمراد بالذكر هو استحضار الله .. فحين يحصل المرء على معرفة الله الكاملة ، وحين يتوجه بكامل وجوده إلى الله ، فتكون النتيجة أن يتصور الله يستولي عليه ، وتتفجر في داخله ينابيع الذكر الإلهي .. والكلمات اللطيفة السامية التي يناجي بها المرء ربه ، عند بلوغه هذا المستوى الروحاني ، هي الذكر .. وليس من الشك في أن هذا الذكر هو أسمى مراتب العبادة.. والمقصود بتلاوة الوحي هنا هو تبليغ الوحي .. أي قراءة آيات القرآن على الناس ، وإخبارهم من خلال ذلك بمرضاة الله .. وعملية الدعوة والتبليغ عملية شاقة تتطلب غاية الصبر والتحمل .. حيث إنها تفرض على الذي ينهض بأعبائها أن يكون ناصحاً لمعارضيه .. وأن يعرض عن أذاهم وإساءاتهم من طرفٍ واحدٍ ، كما يتعين عليه أن يعتبر مخاطبه "مدعوا"، حتى لو كان هذا المخاطب منافساً عنيداً سافر الخصومة له!!

وكما تنهى الصلاة المؤمن في حياته اليومية عن السوء ، تنهي كذلك الداعي عن سلوك مسلك أو تبنّي خطوة لا تليق به كداعيةٍ .. وإنه لن يكون داعي الله حقاً إلا الشخص الذي أصبح صدره معموراً بذكر الله ، والذي يكون قد صار بكل كيانه خاضعاً لله - سبحانه وتعالى!

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾

المنهج الصحيح للداعي ، إذا حاول بعض النامس جره إلى نقاشٍ عقيمٍ لا طائل تحته، أن يفارقه بسلامٍ .. وأما الذين يستمعون إليه بجديةٍ ، فعليه أن يبذل جهده في إيضاح

أمر الحق لهم .. وينبغي أيضاً أن يكون الكلام الدعوي كلاماً حكيماً .. ومن مزايا الكلام الحكيم أن يراعى فيه نفسية المدعو مراعاةً تامةً .. إذْ أن الداعي يفرض حديثه بأسلوبٍ يجعل المدعو يأنس به لدرجة يعتبره معها حديثاً نابعاً من قلبه هو .. دون أن يعتبره - لفظاظة أسلوب العرض - حديث الغير ، فيزداد منه نفوراً وكراهيةً .

إن أسلوب الكلام الدعوي هو أسلوب النصح والموعظة ، وليس أسلوب الجدل والمناظرة !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

الناس نوعان ، نوع يشمل أولئك الذين يتمتعون بعلم الحق سلفاً (أهل الكتاب) ، وآخر يضم أناساً لا يتمتعون بعلم الحق في ظاهر الأمر ، غير أنهم مع ذلك ، يكونون عارفين بالحق على مستوى الفطرة ، فلئن كان أولئك حاملي الكتاب ، فإن هؤلاء حاملو الفطرة .

وإن الناس سيعرفون الحق من فورهم لو كانوا جادين في الواقع .. فإن مجموعةً منهم إذا عرفته على مستوى الكتاب السماوي ، عرفه آخرون على مستوى كتاب الفطرة .. وعلى هذا سيبدو الحديث عن الحق للكل كأنما هو حديث قلبه .. بيد أن الناس لا يلبثون في الأعم الأغلب أن يصابوا بمختلف ألوان العُقَد النفسية ؛ مما يولدّ في نفوسهم مزاج الإنكار والجحود ؛ فهم لا يفتؤون ينكرون الصدق ، مهما اجتمعت القرائن الواضحة على ظهوره ، وتضافرت الأدلة والبراهين القاطعة لتأييده!!

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

رداً على أولئك الذين كانوا يقولون : ما بال هذا النبي لم يأت من عند ربه بالآيات كما جاء بها - مثلاً - موسى من قبل ؟! قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، أي أن أمر المعجزات يتعلق بالله وليس بالنبي .

إن دعوة النبي تعتمد أساساً على الدلائل .. والنبي دوماً يعرض دعوته ، وهو يستند إلى قوة الدلائل .. بيد أن الله سبحانه وتعالى قد يعطي ، نظراً لمصالح واعتبارات أخرى، لبعض الأنبياء آيةً (معجزةً) ، وقد لا يعطيها لبعضهم الآخر .

وإن الإيمان حدث شعوري .. وإنما الإيمان الحقيقي هو الذي يكون قد انبثق في قلب العبد اقتناعاً بدلائل الحق .. والمحق هو الذي يؤمن بالشيء بعدما فحصه واختبره جيداً في ضوء الدليل ، وأما الذي يثير مناقشاتٍ فارغة لا صلة بها بجوهر الموضوع ، فهو المبطل ذاته!.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

أَجَلٌ مُّسَمًّى: هو يوم القيامة.

بَغْتَةً: فجأة.

يَغْشَاهُمُ العَذَابُ: يجللهم ويحيط بهم.

إن أعمال الإنسان هي جنته، وهي جحيمه .. ولو أُتيح لنا بصر نتمكن به من رؤية حياة الكافر العنيد الطاغي من حيث نهايتها المعنوية المحتومة، لوجدنا كأن أعماله السيئة محيطة به من كل جانبٍ في صورة العذاب، ثم يأتي الموت ليقذف به في جهنم من صنع يده!

وطغيان الإنسان كثيراً ما يكون نتاجاً لغفلته وعدم وعيه بحقيقة ذاته، ولو زالت غفلته هذه، واسترد وعيه وشعوره لعاد فجأة إنساناً آخر تماماً !!

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

لَنُبَوِّئَنَّهُم: لننزلنهم على وجه الإقامة.

غُرَفاً: منازل رفيعة عالية.

وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ: كثير من الدواب.

إن الهجرة هي، من إحدى النواحي، علم على تغيير منهج العمل .. وهذا التغيير يتمثل حيناً في تغيير مكان العمل، كالانتقال من مكة إلى المدينة مثلاً، ويتمثل حيناً آخر في تغيير ميدان العمل، كالانتقال من ميدان الحرب إلى ميدان الدعوة، عن طريق صلح

الحديبية مثلاً .

وقد نزلت هذه الآيات تقول لضعفاء أهل الإيمان المقيمين بمكة: إنه لو كان أهل مكة يتناولونكم بصنوف الأذى والإساءة ، فلتغادروا إذن أرض مكة إلى أية بقعةٍ أخرى من بقاع أرض الله الواسعة .. ولتعبدوا ربكم هناك .. ومن هذا نعلم أن معنى الصبر والتوكل هنا هو الثبات على العبادة ، دون الإصرار على مجابهة العدو .. إذْ لو كان المقصود هو المجابهة لذاتها مهما كانت الظروف ، لأمر هؤلاء المستضعفين من أهل الإيمان أن يستميتوا في قتال المعارضين بلا هوادةٍ ، ولا يفكروا في الخروج من هناك على أية حالٍ !!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ: فكيف يصرفون عن توحيده.

وَيَقْدِرُ لَهُ: يضيقه على من يشاء لحكمة.

إن خلق السماء والأرض واقعة عظيمة لدرجة أنه لن يتمكن من إنجازها إلا الله الواحد القهار القادر المطلق .. وهكذا فإن دوران الشمس والقمر ، وهطول الأمطار ، وخروج الشجر والنبات من الأرض ، كل ذلك وقائع أعظم من أن يقوم بإيجادها أحد غير الله - سبحانه وتعالى !!

وليس هناك حتى من بين الذين يمارسون بعض أنواع الشرك ، من يعتقد عن إلهه المزعوم أنه قام بإيجاد هذه الوقائع العظيمة .. وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من الناس

يعبدون أشياء أو أولياء من الأحياء أو الأموات رجاء أنهم سيلقون البركة في أرزاقهم .. ولكن لما كانت كل القدرات والاختيارات العليا بيد الله وحده ، فمن هناك غيره تعالى يقدر على التدخل أو التصرف في تقسيم الرزق للعباد!

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لَهْوٌ وَلَعِبٌ: لذائذ متصرمة ، وعبث باطل.

لَهِيَ الحَيَوَانُ: لهي دار الحياة الدائمة والخالدة.

الدِّينَ: العبادة والطاعة.

السبب الأصلي في ضلال الإنسان يرجع إلى أنه يستغرق في مباهج الدنيا ومسائلها إلى حدٍ لا يستطيع معه أن يفكر متحرراً من أسرارها ، مترفعاً عن مغرياتها ، فلكي تدرك الحقيقة لابد من أن تسمو بنفسك فوق الظاهر .. وبما أن أكثر الناس يعجزون عن السمو بأنفسهم فوق الظاهر، فإنهم لا يحالفهم التوفيق إلى إدراك الحقيقة كذلك .

ومن حينٍ إلى حينٍ يمر الإنسان في هذه الدنيا بتجارب شتى تذكره بمقدار عجزه وضعفه .. فعندها تتلاشى كل أفكاره المصطنعة عن نفسه .. ويستيقظ فيه "إنسان" الفطرة الحقة .. ولكن حين يعتدل الجو ويستقيم أمره ، يعود سيرته الأولى من الغفلة والطغيان .. ومن تلك التجارب الدقيقة تجربة السفر التي أشارت إليها الآية الكريمة .

ينبغي على المرء أن يضع في اعتباره دائماً أن فرصة الحرية والانطلاق هذه إنما هي

متاحة لمدة الحياة الدنيا القصيرة الأجل وحدها ، وأنه سيدخل بعد الموت إلى عالم جديدٍ تماماً، حيث تواجهه مشاكل وقضايا أخرى لم يكن له بها عهد !.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ: يستلبون قتلا وأسرًا.

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ: مكان يثوون فيه ويقيمون.

إن الحرم المكي نعمة من الله عجيبة .. لقد فرض الله له هيبةً على النفوس، لدرجة أنه يَذْهَل هناك حتى الظالمون والطغاة عن ظلمهم وطغيانهم .. وقد كانت قدسية الحرم هذه آيةً من آيات قدرة الله .. وكان مقتضاها أن تخضع قلوب الناس ورقابهم لله رب العالمين وحده.. غير أن عبدة الباطل لم يلبثوا أن صرفوا اتجاه مشاعر العبودية لدى الناس إلى غير الله بإسباغ أوصاف الله عليه كذباً وبهتاناً .. ثم ازداد هؤلاء ظلماً على ظلمٍ إذْ نصح لهم رسول الله بأن ينبذوا تقديس هذه الآلهة المزعومة ، ويخضعوا أمام الله الواحد الأحد ، فناصبوه العداء وتناولوه بالأذى .

إن اتباع الحق في بيئةٍ تسودها عبادة الباطل ضرب من المجاهدة العنيفة .. والذي يتصدى لها يُنتزع منه كل ما عنده ، حيث تنقلب راحته وسكينته إلى قلقٍ واضطراب لا ينتهي .. ولكن يكمن في هذا الحرمان ذاته سر فوزٍ عظيمٍ .. ألا وهو المعرفة والبصيرة .. فلئن كان أمثال هؤلاء قد سُدَّت في وجوههم أبواب الناس ، فإن أبواب الله تنفتح لهم على مصاريعها ، فيأخذون ينالون من الله خيراً مما فقدوه في الدنيا .. وإنهم

بقدر ما يبتعدون عن أسباب الراحة المادية ، يقتربون من الكيفيات الربانية .. وإذ تكون الأشياء الظاهرية قد غابت عن أنظارهم ، فإن الأشياء المعنوية تتجلى لعيونهم ، وتبدأ تنكشف عليهم أسرار دقيقة لا يدري عنها العظماء والأغنياء وأرباب الجاه والسلطان الدنيوي شيئاً !

obeikandl.com